جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
السنة الثالثة

مقرر تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر
(المحاضرة السابعة)
أ.د. أحمد الخضر– د. محمد الحجي

الحركات الوطنية في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى(٢)

ثالثاً– مرحلة النضال السياسي

في الوقت الذي كان فيه النضال الشعبي ضد الاستعمار يواصل نشاطه في الأرياف، ويستمد نشاطه من الحضارة الزنجية الإفريقية، بدأت تتوافر في المدن الشروط المناسبة لنشوء حركات التحرر الوطني الحديثة، وبدء مرحلة النضال السياسي في المدن، والذي استمد وسائله وطرائقه من ثقافة المستعمر الأوربي، وتولى قيادته الصفوة المختارة.

١– حركات التحرر الوطنية

أ– تعريف:

حركة التحرر الوطني هي واقع سياسي يدل على نضوج البيئة السياسية في كل وحدة سياسية في إفريقيا، نضوجاً يتمثل في التفكير السياسي يعبر عن وجوده وفعاليته في منظمات سياسية تطالب بأهداف محددة هي التحرر من أوضاع وتنظيمات اجتماعية فرضها الحكم الاستعماري، واستندت إلى قوته العسكرية، وإقامة حكومات وطنية تمثل المواطنين الأفارقة وتستند إلى إرادتهم الحرة.

ولابد من القول، أن البيئة السياسية هي محصلة التفاعل والاحتكاك بين التراث الذي صنعه سكان إفريقيا وصولاً إلى النفوذ الأجنبي من ناحية، والاستعمار الأوربي وثقافته واقتصاده وأطماعه وتنظيماته من ناحية أخرى. وتولد عن ذلك حركة ديناميكية استغرقت مرحلة طويلة انتهت بظهور الأفكار والثقافات والسمات النفسية لوعي سياسي يعبر عن كيان هذه المجتمعات وطاقاتها و آمال شعوبها.

وتحدد الحركة الوطنية طريقها بهدفين:

- إنهاء السيطرة الاستعمارية الأجنبية
- إقامة حكومات إفريقية وطنية مستقلة

استفادت الحركات الوطنية الإفريقية، وبشكل خاص بين الحربين، من نفوذ الزعامات القبلية، والتي لا تمتلك الفكر السياسي المنظم، ثم من ظهور ونشاط اتحادات وروابط ومنظمات الشباب، وقد ساعد على نشاطها عاملين

- التعليم، رغم محدوديته، فقد أخرج عدد لا بأس به من الأفارقة
- الوضع الاقتصادي المتدهور الذي زادته الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩-١٩٣٣)، سوءاً.

ويمكن القول أن حركات التحرر الوطني قد دخلت في هذه الفترة مرحلة جديدة من النضال، سواءً من ناحية التنظيم أو من ناحية الفلسفة السياسية.

ب-عوامل نشأة حركات التحرر الوطني:

منذ بداية الغزو الاستعماري الأوربي وقفت الشعوب الإفريقية بكل طاقتها ضد الغزو، ولكن هذه الوقفة اتسمت في بدايتها بالطابع القبلي غير المنظم، وكان قادتها-كما رأينا سابقاً- رؤساء القبائل والزعماء المحليين، وأهدافها محددة في الدفاع عن أرض القبيلة ومصالحها، وغالباً ما كانت على شكل هبات لمقاومة حالة من حالات الاضطهاد والاستغلال، ولم يكن بمقدورها الاستمرار طويلاً بسبب الشراسة الوحشية التي قوبلت بها من قِبل الدول الاستعمارية.

حدث تطور في المقاومة الإفريقية نتيجة الوعي الثقافي والسياسي لدى الشعوب الإفريقية، وهناك العديد من العوامل التي أسهمت في نمو هذا الوعي وتطوره إلى حركات تحرر وطنية منظمة وفعالة، وقسمت إلى عوامل داخلية وخارجية.

<u>١ - العوامل الداخلية:</u>

وتتعلق بقدرة الإنسان الإفريقي على تجاوز الواقع الذي يعيشه، والاعتزاز بالنفس والتمسك بالعادات والتقاليد والقيم الإفريقية، إضافة إلى سيادة جوٍ من الاستياء العام الناتج عن الاستعمار، وضرورة النضال من أجل تغييره

(١)- سيادة الاستياء العام داخل المجتمع الإفريقي في كل مستعمرة:

فقد أدت السياسة الإدارية الاستعمارية المحلية في كافة المجالات، وتعاونها مع الشركات التجارية الأوروبية في استغلال الفئات الاجتماعية الإفريقية، إلى توليد حالة عامة من الاستياء داخل المجتمع الإفريقي.

a. **تهميش البرجوازية الإفريقية التجارية الصغيرة الوليدة:**

ساهمت الإدارة الاستعمارية المحلية بتعاونها مع الشركات التجارية على القضاء على التجار الأفارقة، وفي أفضل الأحوال إلى تهميشهم.

فمن جهة، لم تبذل الإدارة المحلية إي جهد لتسهيل اندماج البرجوازية الإفريقية الوليدة، حيث تبنت سياسة ضريبية انتقائية ضارة بالتجار الأفارقة، وتجلت بالصرامة في جباية

الضرائب المتوجبة عليهم، وإجراء مصادرات بحق من يعاني منهم صعوبات مالية، ومن جهة أخرى منحت هذه الإدارة تسهيلات ضريبية للشركات التجارية الأوربية، وساعدتها على حماية أسعارها.

كما تبنت الشركات التجارية سياسة ترمي إلى إقصاء التجار الأفارقة من النظام التجاري، من خلال احتكارها للتجارة في المستعمرات، حيث تبنت سياسة تخفيض لأسعار المواد الخام التصديرية، ورفع أسعار البضائع المستوردة، ورفض تسليف التجار المحليين، فأسهمت بهذا الشكل في خلق صعوبات أمامهم، وإفلاس الكثير منهم ولاسيما في عامي ١٩٣٠-١٩٣١.

b. **إفقار الشرائح الفلاحية:**

فقد قامت الإدارة الاستعمارية المحلية بزيادة دورية لضريبة الرأس، فتحولت هذه الضريبة إلى عبء يثقل كاهل الشرائح الفلاحية المختلفة.

وفي الوقت نفسه، تسبب الانخفاض الشديد في أسعار المواد الخام في أوروبا إبان أزمة الثلاثينات الاقتصادية في انخفاض عائدات الفلاحين الأفارقة، والذين وجدوا أنفسهم بين مطرقة الإدارة الاستعمارية، وسندان الشركات التجارية.

c. **انخفاض القوة الشرائية لعالم العمل:**

فقد اضطر تباطؤ النشاط التجاري بعض الشركات الأوروبية إلى إغلاق متاجرها ووكالاتها التجارية، وتسريح عدد من العاملين الأفارقة فيها، لتخفيض نفقاتها، مما أسهم بازدياد نسبة العاطلين عن العمل. كما أدت رغبة أصحاب المنشآت الخاصة في تخفيض أجورهم إلى تدهور ظروف الاستخدام تدهوراً ملموساً ولاسيما في مجال الأجور.

وتزامن تخفيض الأجور مع غلاء أسعار المعيشة، مما أدى إلى زيادة بؤس اليد العاملة الإفريقية، وأسهم في تفاقم استياء عالم العمل.

(٢)- وعي البرجوازية الإفريقية الصغيرة لتناقضات الوضع الاستعماري واستيائها:

فقد أسهمت مجموعة من العوامل في زيادة وعي البرجوازية الصغيرة وضرورة النضال من أجل تغيير الوضع الاستعماري ومن أهم هذه العوامل:

أ-سياسة الإدارة الاستعمارية المحلية العنصرية واستبدادها :

فقد أُعد قسم من الأفارقة لتشكيل طبقة برجوازية إفريقية صغيرة باسم المبادئ الإنسانية، وإلغاء العبودية، وغرس الطموح فيهم لكي يصبحوا أفارقة فرنسيين يعاملون معاملة الفرنسيين في الحقوق والواجبات.

ولكن بعد انخراطهم في الحياة العملية، وجدوا أنفسهم أمام إدارة استعمارية عنصرية ومستبدة، تمارس عليهم جميع أنواع التعسف والاضطهاد، وحرمتهم من تولي أي مناصب إدارية، وحصرت استخدامهم في المراتب الدنيا، وطبقت عليهم سياسة التميز العنصري في كل شيء تقريباً.

وهكذا وجد الأفارقة المؤهلين لقيادة بلادهم، مضطهدين ومهانين من قِبل هذه الإدارة، وأدركوا أن الوطن المشترك الذي حدثوهم عنه في المدرسة يتنكر لقسم من أبناء الأفارقة، وهم الذين تمثلوا القيم الغربية، واكتسبوا المهارات اللازمة لوصولهم إلى أعلى المراتب الاقتصادية والاجتماعية.

ب- سلوك المستوطنين الأوربيين العنصري:

فقد كان هؤلاء المستوطنين يذكرونهم دوماً وبفضاضة أنهم، ومهما ارتقوا بالدرجات العلمية والمراتب، ليسوا إلا سكان محلين مثل غيرهم.

وبكلمة أخرى، كان المستوطن الأوربي متعالياً في نظرته إلى الإفريقيين، ولو كانوا من البرجوازية الصغيرة الإفريقية، كما كان عنصرياً في تعامله معهم يذكرهم على الدوام بمهانة الوضع الاستعماري وتناقضاته.

ج- الأزمة الاقتصادية في الثلاثينيات:

لعبت الأزمة الاقتصادية التي عاشتها إفريقية في النصف الأول من الثلاثينيات من القرن العشرين دوراً حافزاً في وعي الصفوة المختارة الإفريقية لهشاشة مركزها الاقتصادي داخل المجتمع الاستعماري. فقد تأثر المزارعون والتجار وموظفو الغدارة الاستعمارية المحليين بشدة من هذه الأزمة، ولاسيما بعد إتباع الإدارة الاستعمارية لسياسة تخفيض الأجور، وزيادة الضرائب المحلية، وفرض ضرائب جديدة، مما أدى لانخفاض القدرة الشرائية لعناصر البرجوازية المحلية الإفريقية الصغيرة.

٢- العوامل الخارجية:

أسهمت عدة عوامل خارجية إسهاماً كبيراً في اليقظة السياسية للصفوة المختارة ومن أهمها:

a) **الحرب العالمية الأولى:**

أوجدت ظروف الحرب العالمية الأولى ومتغيراتها أجواء مناسبة لتطوير الحركة الوطنية.

- **توسيع عالم الرجل الإفريقي:**

أدى إسهام الأفارقة كمجندين في الحرب وفي مختلف الجبهات إلى الاحتكاك مع مجندين من الشعوب الأخرى التي تعاني من الاضطهاد الاستعماري، وأدرك الجميع أنهم يقاتلون في سبيل المصالح الاستعمارية وليس المصالح الوطنية، كما أدى ذلك إلى زيادة وعي الأفارقة بأنهم يعيشون في عالم واسع، وليس في قارة إفريقيا فقط.

- **استعادة الإفريقيين الثقة بالنفس:**

إن اشتراك الأفارقة جنباً إلى جنب مع الرجل الأبيض الأوربي، ألغى من أذهانهم نظرية تفوق الرجل الأبيض الأوروبي ودونية الإفريقي، كما وجدوا أن الرجل الأوربي ليس بطلاً خارقاً لا يقهر، بل هو إنسان عادي بالإمكان مقاومته وهزيمته. وعندما عادوا إلى بلادهم نشروا هذه الصورة الجديدة للرجل الأوروبي. لذلك ليس من المستغرب أن رواد الحركات الوطنية الإفريقية الأوائل كان ممن شارك في الحرب العالمية الأولى.

- **وعي الإفريقيين لمبادئ سياسية جديدة:**

كان من أهم النتائج التي تمخضت عنها الحرب العالمية الأولى مبدأي حق الشعوب في تقرير مصيرها ومسؤوليات الحكومات الاستعمارية عن رخاء الشعوب المستعمرة.

فقد روج رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ويلسون لمبدأ حق الشعوب بنقاطه الأربع عشرة، كما روج لهذا المبدأ الحلفاء عن طريق دعاياتهم التي نظموها خلال الحرب لإقناع العالم بأنهم شنوا هذه الحرب لدعم الشعوب الصغيرة في حكم نفسها بنفسها.

أما المبدأ الثاني "مسؤولية الحكومات الاستعمارية " الذي أثار اهتمام الأفارقة ووعيهم فقد نجم عن فكرة الانتداب الجديدة التي تضمنها ميثاق عصبة الأمم . فقد أعلنت المادة الثانية من هذا الميثاق أن رخاء الشعوب وتطورها هو أمانة مقدسة تلتزم بها الحضارة الحديثة. وقد شكلت هذه المادة لأول مرة اعترافاً رسمياً بواجب الحكومات الاستعمارية تجاه الشعوب التي تستعمرها.

وقد لعب هذين المبدأين دوراً مهماً في يقظة الرواد الأوائل لحركات التحرر الوطني ووعيهم السياسي.

b) **حركتي الجامعة الإفريقية والنهضة الزنجية:**

شهد العقدان الأول والثاني من القرن العشرين ظهور ثلاثة حركات زنجية في الولايات المتحدة الأمريكية. اثنتان منها سياسية (حركتا الجامعة الإفريقية، الأولى بزعامة الدكتور دوبوا، والثانية برئاسة ماركوس غارفي)، والثالثة أدبية هي حركة النهضة الزنجية.

وقد أسهمت هذه الحركات سهاماً فعالاً في يقظة الصفوة الإفريقية، وفي إدراكها لأهمية حضارتها وقيمها ولضرورة الاعتزاز بها والعمل على رد الاعتبار لها. كما أسهمت في وعيها لمشاكل الجنس الأسود وضرورة العمل على تحسين مستواه المادي والمعنوي، والنضال من أجل تحريرهم من الاستعمار.

c) **الحركات اليسارية الأوربية:**

لعبت الحركات اليسارية الأوربية، ولاسيما الشيوعية اللينينية، والحزب الشيوعي الفرنسي دوراً مهماً في توعية الصفوة المختارة، ولاسيما في المستعمرات الفرنسية، بمثالب الاستعمار وما يقوم عليه من استغلال واستلاب ثقافي، وبضرورة النضال من أجل تدميره.

d) **المنظمات الزنجية الإفريقية المناهضة للاستعمار في عواصم الدول الاستعمارية:**

شهدت العواصم الأوربية فترة ما بين الحربين ظهور منظمات زنجية مناهضة للاستعمار، أسسها أبناء الأفارقة المقيمين فيها (باريس، لندن، لشبونة).

وإن اختلفت طبيعة وأهداف هذه المنظمات(طلابية، عمالية، ثقافية)، فقد اشتركت في دفاعها عن الجنس الأسود والحضارة الإفريقية ورد الاعتبار إليهما.

وقد لعبت هذه المنظمات دوراً مهم في إيقاظ الصفوة المختارة في القارة الإفريقية من خلال ترويجها لأفكار حركات الجامعة الإفريقية والنهضة الزنجية.

جـ- نشوء حركات التحرر الوطني:

لم تبدأ حركات التحرر الوطني في التكون في جميع البلدان الإفريقية في وقت واحد، ويعود هذا التفاوت الزمني في بدايتها لعدة أسباب أهمها:

١- التباين في درجة التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في فترة ما قبل الاستعمار للمجتمعات الإفريقية.

٢- التفاوت الزمني في بدء اتصالها المباشر مع أوروبا الغربية، وانتشار التعليم على النمط الأوربي فيها.

٣- التباين الزمني في تشكل البرجوازية الصغيرة في كل مستعمرة، وأهمية عدد أفرادها، والتباين الزمني في نضج تعليمها ويقظتها.

٤-تباين أنظمة الحكم الاستعماري بتباين مذاهبها وسياستها الاستعمارية.

وهكذا فإن البلدان التي كان اتصالها بأوروبا الغربية قديماً نسبياً، وتكونت فيها برجوازية صغيرة أبكر من غيرها، ظهرت فيها حركات التحرر الوطني أبكر من غيرها بفترة زمنية لا بأس فيها.

د- السمات العامة للحركات التحرر الوطنية:

من خلال تطور الحركات الوطنية الإفريقية يمكن تحديد السمات العامة التالية:

١) إن نمو الحركات الوطنية يختلف في الكم والكيف بين منطقة وأخرى، وحتى ضمن المنطقة الواحدة نجده متقدماً في أجزاء، ومتأخراً نسبياً أو منتكساً في أجزاء أخرى.

٢) إن الحركات الوطنية تمثل في الحالات الغالبية جبهة أو تجمعاً وطنياً أو مؤتمراًن وإن اتخذ اسم حزب وتضم فئات عديدة وطبقات اجتماعية، قربها وجمع بينها هدف وطني كبير هو المطالبة بالاستقلال والإصلاح السياسي الدستوري.

٣) حددت الحركات الوطنية في المستعمرات البريطانية جميعاً أهدافها الأساسية في الحصول على الاستقلال، وإقامة حكومات إفريقية مسؤولة أمام برلمانات منتخبة من قِبل شعوب المستعمرات، مع بقاء ارتباطها مع بريطانيا في نطاق الكومنولث البريطاني.

٤) أما حركات التحرر الوطني في المستعمرات الفرنسية التي سعت فرنسا إلى فرنستها، فإن النخبة المتفرنسة روجت إلى الاتحاد الفرنسي الفيدرالي، ولكن تطور الأوضاع الدولية واشتداد الحركات الوطنية تجاوز هذه النخبة، ودفع الوطنيون الأفارقة إلى المطالبة بالاستقلال التام.

هـ- مراحل حركات التحرر الوطني:

مرت حركات التحرر الوطني في إفريقية بمرحلتين رئيسيتين هما مرحلة الإعداد والتهيؤ والنضال من أجل إصلاح النظام الاستعماري باتجاه الديمقراطية، ومرحلة قيام حركات التحرر الوطني ونضالها من أجل الاستقلال.

١- مرحلة الإعداد والتهيؤ:

بينما كان النضال الشعبي يواصل نضاله في الأرياف، أخذت تظهر في المدن جمعيات ونوادٍ وروابط، وأحزاب سياسية، وصحافية أحياناً، سادها تياران أحدهما ديني والآخر علماني.

- **التيار الديني:**

مثله بعض الجمعيات والحركات الإصلاحية التي أكدت على الهوية الزنجية الإفريقية الإسلامية لشعوب البلدان التي ظهرت فيها(إفريقية الغربية)، وتصدت لسياسة الإدماج في المستعمرات الفرنسية، وطالبت بإصلاح النظام الاستعماري باتجاه الديمقراطية.

كما تجلى هذا التيار من خلال الحركات المسيحية الإصلاحية، وظهور الكنائس الإفريقية المستقلة(إفريقيا الجنوبية ووسطها وشرقها وغربها)، تعبيراً عن سخطها وغضبها، وتواطؤها مع الإدارات الاستعمارية وممارساتها التعسفية وسياسة التمييز العنصري. كما عملت على طبع المسيحية والكنيسة الإفريقية بالطابع الزنجي الإفريقي.

- **التيار العلماني:**

مثلَّ هذا التيار جمعيات ونوادٍ ورابطات ثقافية واجتماعية وخيرية تعاونية، وكان لمعظمها اهتمامات سياسية، وتجلت هذه الاهتمامات من خلال دورها الفعال الذي لعبته في توعية أعضائها بمساوئ الاستعمار وممارساته، ودور مثقفيها في توعية الفئات الاجتماعية الجديدة الأخرى، وتوعية الجماهير الإفريقية وإرشادها إلى الوسائل العصرية لمقاومة الاستعمار (الإضراب، كتابة العرائض، تشكيل وفود للاحتجاج، ...إلخ).

وقد اقتصر النضال في هذه المرحلة على الكشف عن مساوئ النضال وتجاوزاته، والمطالبة بإصلاحه باتجاه الديمقراطية، والسماح للأفارقة في إدارة شؤون بلادهم وتقرير مصيرهم، وتحديث التعليم وإلغاء الإجراءات التعسفية. وبكلمة موجزة على النضال من أجل إصلاح النظام الاستعماري باتجاه الديمقراطية، وليس المطالبة بالاستقلال إلا في حالات نادرة.

وقد امتدت هذه الفترة في قسم المستعمرات حتى عام ١٩٣٥، وفي القسم الآخر منها حتى عام ١٩٣٩، أو عام ١٩٤٥.

٢- قيام حركات التحرر الوطني والنضال من أجل الاستقلال:

مثّلت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية مرحلة جديدة في تطور الحركة الوطنية نتيجة لانتشار الدعايات لتمجيد الطرق الديمقراطية في الحياة والحكم، واشتداد الدعوة لمحاربة النازية والفاشية، وتعلق شعوب المستعمرات بمبادئ ميثاق الأطلنطي وعصبة الأمم المتحدة، وما صاحب الحرب من صعوبات اقتصادية وتنظيمات خاصة بالأسعار، وما قادت إليه من توسع في وسائل الإعلام، وزيادة في طرق المواصلات واستغلال الموارد والأيدي العاملة وظهور صناعات جديدة.

كل هذه الأمور أحدثت تطوراً عميقاً في البنى الاجتماعية والاقتصادية، وأسهمت في ظهور الطبقة المتوسطة كطبقة فعّالة في المجالين السياسي والاقتصادي بعد انهيار الهيكل الاجتماعي القديم. وظهرت المنظمات السياسية على شكل مؤتمرات أو جهات أصبحت عضويتها مفتوحة لكل المواطنين، وحددت أهدافها بالحصول على الاستقلال والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، وظهرت الوحدة الوطنية واضحة بحيث سدت الطرق أمام الاستعمار للتآمر ضد الحركة الوطنية وقياداتها الشعبية.

وقد اتخذ النضال من أجل الحصول على الاستقلال طابع النضال السياسي(المستعمرات الإنجليزية في إفريقية الغربية، والفرنسية في إفريقية الغربية والاستوائية).

ولكن في المستعمرات التي تحتوي عدد مهم من المستعمرين (المستعمرات الإنجليزية في جنوب إفريقية والبرتغالية في الوسط والغرب)، فقد اضطر قادتها للنضال المسلح والسياسي لنيل الاستقلال.

وبدءاً من عام ١٩٥٧ بدأت الدول الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى بالحصول على استقلالها، حيث وصل عدد الدول الإفريقية المستقلة إلى ٢٦ دولة عام ١٩٦٣، و٤٦ دولة عام ١٩٧٧، و٤٨ في عام ١٩٩٣.